أسماء الله الحسنى

القابض والباسط -جل جلاله-

التاسع والثلاثون

هما اسمان جليلان، يوطِّدان لسلامة العقيدة، ويُطهِّران شوائب الإيمان، ويرفعان المؤمن إلى درجة العبودية الخالصة، والتعلُّق الكلي بربِّ السماوات والأرض، الذي لا يجري شيء في الكون إلا بعلمه، ولا يتصرَّف شيء إلا بقُدْرته، ولا يحدث للإنسان شيء إلا بإرادته.

وهما اسمان عظيمان، مَنْ تأمَّلَ حقيقتَهما عاش حياة السعادة، ومن آمن بمقتضياتهما تقلَّب في رَغَدِ الطُّمَأْنينة، ومَن فَقِه غايتَهما اكتفى بما عنده، ولم يطمَع فيما عند غيرِه، وقنِعَ بما رزَقه الله، ولم يلتفت إلى دنيا غيره، فاستراحت نفسُه، وقلَّ همُّه، وذهب غمُّه، وتبدَّد قَلَقُه، وهما من الأسماء المزدوجة التي لا يتحقَّق وصْفُ الكمال الإلهي إلَّا باجتماعها.

إننا في هذه الحياة ما بين قبض وبسط؛ تضِيق الأرزاق وتشح الأقوات حينًا، ثم تكثر الأرزاق والأقوات وتزيد؛ فهذا قبض وبسط، تنقبض الصدور وتكل النفوس حينًا ثم تنشرح وتنفتح، فهذا قبض وبسط، يشح العدل وينتشر الجور والظلم حينًا ثم تمتلئ الأرض عدلًا وقسطًا، فهذا قبض وبسط، يحرَّم على الصائم الطعام والشراب والشهوة ثم يؤذن للمغرب فيحل له كل ذلك، وهذا قبض وبسط... فإن حياتنا كلها ما بين قبض وبسط، فتُرى من الذي يقبض ومن الذي يبسط؟ يجيب القرآن: (وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [البقرة: 245]؛ فمن أسماء الله الحسنى: القابض والباسط.

❁فالباسِطُ سبحانه: هو الذي يَبْسُط الرزق لعباده بجُوده ورحمته، ويوسعه عليهم ببالغ كرمه وحكمته، فيبتليهم بذلك على ما تقتضيه مشيئته، والقابِضُ سبحانه: هو الذي يمسك الرزق وغيره من الأشياء عن العِبادِ بلطفه وحِكمته فيُضَيِّقُ الأسباب على قوم ويُوَسِّع على آخرين ابتلاء وامتحانا، فإن شاء وسع وإن شاء ضيق فهو الباسط القابض، فإن قبض كان ذلك لما تقتضيه حكمته الباهرة لا لشيء آخر فإن خزائن ملكه لا تفنى ومواد جوده لا تتناهى، كما قال تعالى : (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) [الحجر :21] فعطاؤه ومنعه تابع لعلمه بعباده وما يصلحهم وما يفسدهم، ولذا كثيرا ما يقرن ربنا سبحانه بسط الرزق والتضييق بالعلم والخبرة ؛ كما قال تعالى : (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [الشورى:12].

القابض - الباسط جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه:

اقتران الاسمين: يلزم حين نعرّف بهما أن نجمع بينهما فذكرهما معاً يؤدي إلى معنى تمام القدرة.

قال الخطابي: "قد يحسن في مثل هذين الاسمين أن يقرن أحدهما في الذكر بالآخر، وأن يوصل به ليكون ذلك أنبأ عن القدرة، وأدل على الحكمة، وإذا ذكرت القابض مفردًا عن الباسط

كنت كأنك قد قصرت بالصفة على المنع والحرمان، وإذا أوصلت أحدهما بالآخر فقد جمعت بين الصفتين منبئًا عن وجه الحكمة فيهما".

❍معنى القبض لغة: من الأخذ والمنع. ❍البسط: العطاء والسّعة.

✉أدلة ثبوت الاسمين لله تعالى:

ورد في حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: غلا السِّعر على عهد رسول الله -ﷺ- فقالوا: يا رسول الله، لو سعَّرت، فقال: " إنَّ الله هو الخالقُ القابضُ الباسطُ، الرّازق المُسعِّر، وإنّي لأرجو أن ألقى الله ولا يطلبني أحد بظلمة ظلمتها إياه في دم ولا مال " [الترمذي].

ووردا فعلاً في القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [البقرة:245].

وفي أحاديث كثيرة منها، كقوله -ﷺ-: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِهَا" [صحيح مسلم].

وقوله -ﷺ-: يَقْبِضُ اللَّهُ الأرْضَ يَومَ القِيامَةِ، ويَطْوِي السَّماءَ بيَمِينِهِ، ثُمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ أيْنَ مُلُوكُ الأرْضِ " الحديث [البخاري].

🖒معنى الاسمين في حقّ الله تعالى:

⇦ولاسمي الله القابض والباسط معان كثيرة منها ما يلي:

🖒المعنى الأول: ❍الباسط هو الذي يوسّع أرزاق العباد ويزيدها بجوده وكرمه، قال -تعالى-: (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) [الإسراء: 30].

❍والقابض هو الذي يضيق الأرزاق ويقترها وفق حكمته، وفي كلا البسط والقبض صلاح أو ابتلاء لعبيده، قال -عز من قائل-: (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) [الشورى: 27]، "فإذا زاده لم يزده سرفًا وخرقًا، وإذا نقصه لم ينقصه عدمًا ولا بخلًا" (الخطابي).

في قوله تعالى: " وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " [البقرة:245] قالوا في تأويلها: يقبض على من قبض وأمسك عن الإنفاق ويبسط على من بسط يده عطاءاً وإنفاقاً.

🗁قالوا هنا قاعدة في مسألة حب الدنيا والخوف من الفاقة: أنت مع الدنيا ما لم تشهد ربّها فإذا شهدت ربّها كانت الدنيا معك وتأتيك وهي راغمة.

قال-ﷺ-: "من كانتِ الآخرةُ هَمَّهُ جعلَ اللَّهُ غناهُ في قلبِهِ وجمعَ لَه شملَهُ وأتتهُ الدُّنيا وَهيَ راغمةٌ، ومن كانتِ الدُّنيا همَّهُ جعلَ اللَّهُ فقرَهُ بينَ عينيهِ وفرَّقَ عليهِ شملَهُ، ولم يأتِهِ منَ الدُّنيا إلَّا ما قُدِّرَ لَهُ". صحيح الترمذي

- وأن الله عزّوجلّ إنّما يقبض ويبسط على حسب ما يراه سبحانه من المصلحة للعباد.

🗁فالقاعدة: قالوا: يقبض بالعدل ويبسط بالفضل، ويقبض بالحِكمة ويبسط بالرّحمة، فإذا أعطاك أعطاك ستُعجب وتهلك، فيقبض بالحكمة، ويمنع عنك حتّى إذا أوشكت على اليأس والقنوط أغاثك بالرحمة، يُولج ليل البسط في نهار القبض ويولج نهار البسط في ليل القبض، ويرزق من يشاء بغير حساب.

📂قاعدة: إذا قَبض قبض حتى لا طاقة: وهذا معنى " وظنوا ان لا ملجا منه إلا إليه " فيمنع عن العبد حتى يجمع قلبه عليه، ثم (يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ).

⇦وإذا بَسَطَ بَسَطَ حتى لا فاقة: يُعطيك أكثر مما تحتاج ومما تتصوّر، والكلّ منه وإليه.

يا واهِبَ الأرزاقِ يُكرِمُ خَلْقَه أنَّى تَشَا أنتَ الجَوادُ القَابِضُ

إنْ جُدْتَ أدهَشَنا النَّعِيمُ مُبارَكًا فالخيرُ من كُلِّ المنافِذِ فائضُ

وإذا قبَضْتَ الرِّزْقَ ليسَ بِمقبِلٍ إلَّا بإذْنِكَ أنت أنت القابضُ

📁أما المعنى الثاني: فالقابض: هو الذي يقبض الأرواح بالموت أو بالنوم المكتوبان على العباد، فإذا قبض القابض -تعالى- روح عبد فقد أماته أو أنامه، وإذا بسطها الباسط -عز وجل- فقد أحياه أو أيقظه من نومه؛ ففي الصحيحين عن أبي قتادة أن النبي -ﷺ- قال حين ناموا عن الصلاة: "إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردها حين شاء" (متفق عليه).

📁أما المعنى الثالث لاسم الله الباسط: فهو الذي يبسط يده بالتوبة ويقبلها عن عباده؛ فعن أبي موسى أن النبي -ﷺ- قال: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِهَا " (مسلم).

📁ومن معاني اسم الله القابض: أنه -سبحانه وتعالى- يقبض الأرض بيمينه؛ فقد قال -عز من قائل-: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) [الزمر: 67]، وهو نفس ما أعاده رسول الله -ﷺ- حين قال: "إن الله يقبض يوم القيامة الأرض، وتكون السماوات بيمينه" (متفق عليه)، وفي لفظ لمسلم: "يأخذ الله -عز وجل- سماواته وأرضيه بيديه، فيقول: أنا الله، أنا الملك".

📁ومن معاني اسم الله الباسط: الجواد الكريم الذي لا يبخل ولا يمسك بركاته وأرزاقه، على عكس ما اتهمت به اليهودُ ربَ العزة -جل وعلا- حين قالوا: (يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ) فرد الله عليهم: (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) [المائدة: 64].

قال ابن القيم في نونيته:

هو قابض هو باسط هو خافض *** هو رافع بالعدل والإحسان

📰إن المتأمل فيما حوله من شمس تشرق وتغرب، وأمطار تمسك وتهطل، وأرزاق تشح وتفيض... وكذا المتفكر في أحوال قلبه وصدره وفي أحوال الناس من حوله ليدرك تمام الإدراك أن أفعال الله -تعالى- من القبض والبسط قد عمت هذا الكون وشملته، وإليكم بعض مظاهر ذلك وتجلياته:

✉السحاب الذي يُقبض من مكان؛ فلا ترى فيه قزعة ولا نقطة مطر، ويبسط في مكان آخر ويتكاثر ويهطل بالمطر، قال -تعالى-: (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) [الروم: 48].

✉ومن تجليات اسمي الله القابض الباسط: أنه -تعالى- يقبض نور النهار وينشر ظلام الليل، قال -عز من قائل-: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا) [الفرقان:45-46]؛ "فالظل مكثه في هذا الجو بمقدار طلوع

الفجر إلى طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضًا، وخلفه في هذا الجو شعاع الشمس فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها" (تفسير القرطبي).

⇦ولولا ذلك لامتد الليل أبدًا أو النهار أبدًا، قال -تعالى-: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) [القصص: 71-72]، لكنها حكمة الله -تعالى- ورحمته، الذي قال: (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [القصص:73].

✉ومن مظاهر اسمي الله القابض الباسط: أنه -عز وجل- يقبض قلوبًا فتحجم وترفض نور الله وهداه، ويشرح ويبسط قلوبًا أخرى فتقبله، قَبْضُه سبحانه قلوبَ الظالمين، فلا تسري فيها رحمةٌ، وبَسْطُه قلوبَ الصالحين، فلا تشوبها قَسْوةٌ؛ قال -سبحانه-: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) [الأنعام:125]؛ فالباسط يشرح الصدور فتقبل الإسلام، والقابض يقبضها فترفضه.

✉وهو الذي يقبض العلم عمن يشاء ويبسطه لمن يشاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: 247].

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينزع العلم انتزاعًا من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالِمًا اتخذ الناس رؤوسًا جُهالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلوا" رواه البخاري.

✉أما قبض الدنيا عن العباد وبسطها فشيء مشهود معلوم، وممن شهد به عتبة بن غزوان -رضي الله عنه- حين قال: "ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله -ﷺ- ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى قرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرًا على مصر من الأمصار" (مسلم)،

وصدق الله: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ) [آلعمران: 26].

إن على المؤمن باسمي الله القابض والباسط واجبات متعددة، لن نستطيع حصرها في هذه العجالة، لكننا نقدم لها أمثلة، ومنها:

✉توطين النفس على الصبر عند القبض، وعلى الشكر عند البسط، وفي كليهما الخير للعبد والسعادة له؛ فعن صهيب قال: قال رسول الله -ﷺ-: " عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإِنْ أَصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له " (مسلم)؛ فيصبر المؤمن عند ضيق الرزق وعند شح المطر وعند الهم والحزن وعند الجور والظلم، ثم يشكر إذا ما بدَّل الله -تعالى- القبض بسطًا فانهالت عليه النعم والأقوات والأفراح.

✉ومن واجباته: الحذر من أسباب قبض الصدر وضيقه من الذنوب والمعاصي، ولا ننسى حال الثلاثة الذين استزلهم الشيطان فتخلفوا عن غزوة تبوك، والذي وصفه الله -تعالى- قائلًا: (حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ) [التوبة: 118]، وكذا حال بعض الصحابة إذ اغتروا بكثرتهم يوم حنين، وقد وصفه القرآن -كذلك- قائلًا: (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ) [التوبة: 25].

وعن أبي هريرة أن رسول الله -ﷺ- قال: " إنَّ العبدَ إذا أخطأَ خطيئةً نُكِتت في قلبِهِ نُكْتةٌ سوداءُ، فإذا هوَ نزعَ واستَغفرَ وتابَ سُقِلَ قلبُهُ، وإن عادَ زيدَ فيها حتَّى تعلوَ قلبَهُ، وَهوَ الرَّانُ الَّذي ذَكَرَ اللَّهُ ": (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [المطففين:14] (الترمذي)، والقاعدة أن كل ذنب ومعصية تضيق الصدر وتقبضه.

✉فيخشى من البسط إذا كان قرين المعصية أن يكون استدراجاً من الله له وقد جرت سنة الله أن أعظم ما يكون العطاء للكفرة والمكذبين حينما يشتد إعراضهم وكفرهم كما قال تبارك وتعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) [الأنعام: 44].

📝ولقد ضرَب الله عز وجل في موضعٍ واحدٍ مَثَل مَنْ فتح الله عليه الدنيا، فتجبَّر وطغى، ومَنْ منَعه الله إيَّاها، فرجع وارعَوى. ها هو قارون الذي كان من أتباع موسى مُلقبًا بالمنور لحُسْن صوته بالتوراة، ابتلاه الله بالدنيا التي فُتِحَت عليه من كل جانبٍ، لكنه اغترَّ بماله، وصَلِفَ بجاهه، ونَسِيَ شُكر نعمة ربّه، حتى قال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: 78]، أما أتباعه فلم يلحظُوا سُنَّة الابتلاء في كثرة المال والجاه، فقالوا: ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص: 79]؛ لكن لما خسَف الله به وبداره الأرض؛ لتجبُّره وتكبُّره، وفساد عقيدته، رجَعوا إلى أنفسهم، وعلموا أن خيرهم في فقرهم، وأن فلاحَهم في مَنْعِهم: ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ [القصص: 82]، فتابوا إلى الله عن تمنِّي الدنيا إلا بحقِّها، وأن الله حكيم في بَسْطِها وقَبْضِها.

📝وقد كان الصالحون الذين أنعم الله عليهم يخشون أن تكون حسناتهم عجلت لهم، وقد يَقتُرُ الله على من يُحبُّه زيادةً له في الإيمان، وتقويةً له على الشُّكْر، فقد أُوتي عبد الرحمن بن عوف بطعامٍ وكان صائمًا، فروى البخاري من حديث عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- : (أنه أُتِيَ بِطَعَامٍ وَكَانَ صَائِمًا فَقَالَ : قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي ، كُفِّنَ فِي بُرْدَةٍ ، إِنْ غُطِّيَ رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلاَهُ ، وَإِنْ غُطِّيَ رِجْلاَهُ بَدَا رَأْسُهُ ، وَأُرَاهُ قَالَ : وَقُتِلَ حَمْزَةُ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي ، ثُمَّ بُسِطَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا بُسِطَ ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لَنَا ، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ). البخاري

قال بعض الصالحين:

نَصبَتْ لنا الدنيا زخارفَ حُسْنِها مَكْرًا بنا وخديعةً ما فَتَّرتْ

وهي التي لم تَحْلُ قَطُّ لذائقٍ إلَّا تغيَّرَ طَعْمُها وتَمَرَّرَتْ

خدَّاعةً بجَمالها إنْ أقْبَلَتْ فجَّاعةً بزوالها إنْ أدْبَرَتْ

وهَّابةً سلَّابةً لهِباتِها طَلَّابةً لخَرابِ ما قَدْ عَمَّرَتْ

وإذا بَنَتْ أمرًا لصاحِب ثَرْوةٍ نَصَبتْ مَجانِقَها عليه فَدَمَّرَتْ

📝وقد ينطوي المنعُ والتضييق على نِعَمٍ كثيرة، يجد الإنسان أثَرَها عيانًا؛ كما قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: "ما أُصِبْتُ ببلاء إلَّا وجدْتُ لله عليَّ فيه أربع نِعَمٍ: الأولى أنه لم يكن في ديني، والثانية أنه لم يكن أكبرُ منه، والثالثة أنني لم أُحْرَم الرِّضا به، والرابعة أنني أرجو ثواب الله عليه".

وقال سفيان الثوري -رحمه الله-: "لم يفقه عندنا من لم يَعُدَّ البلاء نِعْمةً، والرَّخاء مُصيبةً".

وقال وهب بن مُنبِّه -رحمه الله-: "إذا سُلِكَ بِكَ طريقُ البلاء، سُلِك بكَ طريقُ الأنبياء".

وقال مطرف-رحمه الله-: "ما نزل بي مكروهٌ قَطُّ فاستعظمتُه، إلَّا ذكرتُ ذُنُوبي، فاستصْغَرْتُه".

والمؤمن البصير ينظر ماذا وجد، لا ماذا فقد، ينظر إلى النِّعَم الوفيرة التي مَنَّ الله بها عليه، وقد حُرِمَ منها ألوفٌ غيرُه، فيكون ذلك أدْعَى له على الشُّكْر.

ورَحِمَ الله عروة بن الزبير لما ابتُلي بقَطْع رِجْله قال: "اللهم إنْ كنتَ أخذْتَ فقد أعطيْتَ، وإنْ كنتَ ابتليْتَ فقد عافيْتَ".

وفي القدر خفايا وأسرار، ولو كُشِف للعبد قَدَرُه، ما اختار غيرَ ما يقضيه اللهُ له.

ومن واجباته: الأخذ بأسباب انشراح الصدر وبسطه، وتجد ذلك في كل طاعة تؤديها مخلصًا لله فيها مستشعرًا الخشوع والخضوع والحاجة إليه -سبحانه-؛ فعن ذكر الله قال القرآن: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد: 28]، هو الذي يملأ القلوب بالفرح والانشراح والبهجة، ويُفيض عليها من ألوان برّه ولُطفه؛ وعن كفالة اليتيم والمسكين قال رسول الله -ﷺ- لمن شكى قسوة قلبه: " إنْ أردْتَ تَلْيِينَ قلبِكَ، فَأَطْعِمِ المِسْكِينَ، وامْسَحْ رَأْسَ اليَتِيمِ " (السلسلة الصحيحة).

ومن واجباته: طلب بسط الرزق بأسبابه الإيمانية والكونية؛ فمن أسباب بسط الرزق الإيمانية الاستغفار؛ فعلى لسان نوح قال الله -تعالى-: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) [نوح: 10-12]، ومنها: الإيمان والتقوى، قال -عز وجل-: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) [الأعراف: 96]، ومنها: صلة الرحم؛ فعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: " مَن سَرَّهُ أنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، أوْ يُنْسَأَ له في أثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ " (متفق عليه).

وأما السبب الكوني فالسعي على المعاش والضرب في الأرض كما أمر الله -تعالى- حين قال: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) [الملك: 15].

فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّه لا قَابِضَ ولا بَاسِطَ إلا اللهُ سُبْحَانَهُ، فهُوَ الذِي يَقْبِضُ الجَمِيعَ ويَبْسُطُهُ. وهُوَ الذِي يَبْسُطُ القُلُوبَ والأَلْسِنَةَ والأَيْدِيَ وَسَائِرَ الأَسْبَابِ. فَإِنْ كُنْتَ مَبْسُوطَ القَلْبِ بالمَعَارِفِ، والعُلُومِ الدِّينِيَّةِ، فَابْسُطْ بِسَاطَكَ، وابْسُطْ وَجْهَكَ، واجْلِس للنَّاسِ حَتَّى يَقتَبِسُوا مِنْ ذَلِكَ النِّبْرَاسِ. وإنْ كُنْتَ ذا بَسْطَةٍ فِي الجِسْمِ، فابْسُطْهُ فِي العِبَادَةِ التي تُفْضِي بِكَ إلَى السَّعَادَةِ، وفِي الصَّولَةِ عَلَى الأَعْدَاءِ، بِمَا خُوِّلْتَ مِنَ المِنَّةِ والشِّدَّةِ. وإنْ كُنْتَ ذا بَسْطٍ فِي المَالِ، فابْسُطْ يَدَكَ بالعَطَاءِ، وأَزِلْ مَا عَلَى مَالِكَ مِنَ الغِطَاءِ، ولا تُوكِ فَيُوكِي اللهُ عَلَيكَ، ولا تُحْصِ فَيُحْصِي اللهُ عَلَيكَ. وإنْ كُنْتَ لم تَنَلْ حَظًّا مِنْ هَذِهِ البَسَطَاتِ فابْسُطْ قَلْبَكَ لِأَحْكَامِ رَبِّكَ، ولِسَانَكَ لِذِكْرِهِ وشُكْرِهِ، وَيَدَكَ لِبَذْلِ الوَاجِبَاتِ عَلَيكَ، وَوَجْهَكَ لِلْخَلْقِ، كَمَا في صحيح مسلم (عَنْ أَبِى ذَرٍّ قَالَ قَالَ لِيَ النَّبِيُّ -ﷺ-:«لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ».

من آثار الإيمان باسمه (القَابِضُ البَاسِطُ):

❶إدراك سعة رحمة الله تعالى: روى مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه عن النّبيّ -ﷺ- قال: (إِنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا).

❷أن من بسطت له الدنيا فعليه أن يعترف بفضل الله ومنته، قال الله تعالى: (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) [يوسف :101]،

❸ومن آثار الإيمان باسمه (القَابِضُ البَاسِطُ): أن يبسط لسانه لله بالشكر ويده بالعطاء.

❹أن يعلم المؤمن أنه مبتلى بهذا المال، ويقول كما قال سليمان عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 40].

❺ومن آثار الإيمان باسمه (القَابِضُ البَاسِطُ): أن يخشى المؤمن أن يكون ما بسط له فيه قد يكون استدراجاً من الله له، قال تبارك وتعالى: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) [الأنعام: 44].

❻أن يوقن العبد المؤمن الذي حرم شيئا من الدنيا، ولم يقدر له مع السعي في تحصيله، أن هذا اختيار الله له، فلعل الله حرمه لتصفو نفسه لمولاه وتقر عينه بربه، يجب نرضى بما قسم الله لنا: من رزق وغيره، سواء كان قبضًا أو بسطًا؛ لأنه سبحانه الحكيم العليم بخلقه وما يُصلح لهم، فله الحمد على كل أفعاله، وله الحمد في خلقه وأمره.

❼ومن آثار الإيمان باسمه (القَابِضُ البَاسِطُ):" أن يعلم العبد المؤمن أن الله يربي عبده على السراء والضراء، والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال، فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال، إذا أُعطي شكر وإذا مُنع صبر، أما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأنَّ به، وإن أصابته فتنةٌ انقلب على جهه، فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته.

❽حسن التوكل على الله عز وجل ، فكل ما يناله العبد من الخير والعطاء فهو رزقه في سابق القضاء ، وما كتب له في اللوح سيصله بالتمام ، ومن ثم يصبر عند البلاء ويشكر عند الرخاء ، روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله -ﷺ- قَالَ : (يَقُولُ اللهُ تعالى مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلاَّ الْجَنَّةُ) ، ويَجِبُ عَلَى مَنْ ضَيَّقَ عَلَيه فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَنْ لا يَلْجَأَ إِلَّا إِلَى القَابِضِ البَاسِطِ الذِي يَمْلِكُ مَا يَتَمَنّى ويُرِيدُ، وأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ بِعَدْلِهِ سُبْحَانَهُ وَهُوَ لا يَظْلِمُ أَحَدًا.

❾ومن آثار الإيمان باسمه (القَابِضُ البَاسِطُ): أن يوقن المؤمن أن الذي أعطى غيره لا يعجزه أن يعطيه مثلهم، فهو الذي بيده سبحانه الملك كله وعلى العبد أن يسعى.

⓾الحذر من استعمال ما بسطه الله لك من الرزق وغيره في معاصيه: فإن ذلك موجب لسخط الله، وسلب النعم وحلول الأوجاع والنكبات والنقم، بل الواجب شكر الله تعالى على عطائه وجعل كل رزق في طاعته.

❶❶الدعاء بهما: فقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِي -ﷺ- أَنَّه دَعَا رَبَّهُ وأَثْنَى عَلَيه، بِذِكْرِ قَبْضِهِ وبَسْطِهِ وتَفَرُّدِهِ فِي ذَلِكَ سُبْحَانَهُ. فَفي مسند أحمد: (عَنْ عُبَيْدِ بنِ رِفَاعةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: "اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّى». فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفاً فَقَالَ «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ اللَّهُمَّ لاَ قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ وَلاَ بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ وَلاَ هَادِىَ لِمَا أَضْلَلْتَ وَلاَ مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ وَلاَ مُعْطِىَ لِمَا مَنَعْتَ وَلاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلاَ مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ وَلاَ مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ".

فاللهم هبنا عند القبض رضا وصبرًا، وارزقنا عند البسط شكرًا وبرًا.

المراجع:

❶شرح واسرار الاسماء الحسنى للشيخ هاني حلمي: القابض الباسط.

❷اسم الله القابض والباسط: ملتقى الخطباء - الفريق العلمي.

❸خطبة عن اسم الله (الْقَابِضُ الْبَاسِطُ).

❹القَابِضُ الباسط جل جلاله: خالد بن محمد السليم. اسما الله تعالى: القابض الباسط (تأصيلا وفقها)

❺القابض الباسط (تأصيلا وفقها): د. محمد ويلال